

فتنة السرك

لأذيت منذ أبو المعاضى النجاشي

عائلة ، فإن الإطار يتغير عن ذي قبل ، فتبدو تلك الانسامة وادعة خاضعة ، ويمتد العنق المائل ليرتفع بالرأس الصغير في شروء صامت ، وبين لحظة وأخرى تطرف العيون الفاتنة بطرات كأنها خجولة !

وكان لهذا الإطار المتغير دخل كبير في تقدير النجاشي المناسب لاسورة الهداة ... وانتهت خطواتها إلى مائدة منفردة تمجدق بها عائلة صغيرة قوامها زوج وزوجة في نهاية العقد الثاني ، وحفل صغير !

ولم تكذب مديدها بالصورة نحو الطفل الذي كان يشير إليها بيديه الصغيرتين حتى أخذها منها ثم هتف بعد أن نظر إليها قليلا ... الله ! ... الصورة دي زيك تمام يا ماما ! ثم ألتفتها من فمه في سذاجة حلوة وقبلها بطريقة جعلت أبويه ينفقان في الضحك ! ولأول مرة لم تنقبه رجاء ، إلى ما تصنع بالفضيلة الغضبية التي أعطاها إياها الزوج ... لم تفكر فيما إذا كان ينبغي أن تأخذها كلها أو تعطيه فكتمها ليعطيها هو ما يشاء من قروش لم تفكر في شيء من ذلك ، وإنما

كان الجمهور داخل السرك ينصت إلى الأغنيات الشعبية التي يصدح بها « الجرامفون » في فترات الاستراحة ... وكانت الموائد المحدقة بحلقة اللعب حيث يجلس الرواد الثريون لا تكاد تلقى بالهنا إلى هذه الأغنيات ، لأن من عادتها كل مساء أن تستقبل في تلك الفترات خطوات « رجاء » مائدة السرك ، وهي تطوف بها توزع صورها الجميلة لقاء ما يدفعها به الرواد من قروش ... وكانت رجاء الفتاة التي عرفت طبائع النفوس ... تحرص كل الحرص على أن تصنع شكل صورة إطارا نفسها خاضا بخلف عادة باختلاف الرواد !

حين تمر بمائدة يجلس عليها جمع من الشباب كان هذا الإطار يتألف من تلك الانسامة الساحرة التي يقطن كل من يراها أنها له ، ومن تلك الانسامة الرقيقة للعنق العاجي ، تلك الانسامة التي تستقبل عادة ميل مصلات شمر عن الأنقر الفاتن إلى جانب وجهها في دلال مشير !

وحين تشغل إلى مائدة أخرى يجلس إليها

الملح ! ولكنّها مع هذا كله لم تكن تهتز، بل ولم تكن تختلج . كانت حتى في اللحظات الحاسمة حين تقف فوق هرم من الأجسام الرياضية المفتولة لتؤدي ألعابها المثيرة ، كانت حتى في هذه اللحظات تقف لتواجه عيون النظارة التي تكاد تخرج من محاجرها دون أن تشعر بأدنى اضطراب ! فلماذا الآن لا تملك أمر نفسها ولا تكاد تمسك زمام مشاعرها ؟ ولكن ، ولكن ماذا يار جاء ؟ وإليك تكذّبين على نفسك ، فما كانت همسات النزل ولا نظرات التودد جدية بأن تنفذين أدبياتك إلى قلبك حتى يتحقق أو يهتز . أنت نعرفين إن عمر هذه الكلمات قصير ، كالقذائف المدغور . إنها تولد هنا في السرّك وتموت هنا أيضا قبل أن يخرج الروادليهمس بعضهم في أذن مضطربين : لقد كانت سهرة عامة بالفضحك ، مافلة بالطرائف حتى شعرت برغبة في امشاء مرة ثانية !

لا يار جاء ! إنها كلمات ميتة لا تهر قلب غدراء . غدراء ؟ ماذا قالت يار جاء ؟ أليست تلك مغالطة أخرى ؟ أين أنت من العذارى ؟

أفدعت من حولك لك الأردية الطيفة الشديدة التي ترقل فيها العذارى دائما كما ترقل الزرود في غلال شفاقة من قطرات الندى الصافية !

وسعها بلا وعى في جيبها الخارجي ، وظلت مشاعرها كلها موزعة حائرة كأنما كانت تحاول أن تجمع من الفضاء نبرات ذلك الصوت الصغير البري ! لتسمعه من جديد ! ولأول مرة أيضا نسيت أن تقول كلماتها التقليدية « مرسى » وإنما مدت يديها لتجمع بينهما ذلك الوجه الصغير ونطبع على وجنتيه قيلتين ذاكرتين !

ولأول مرة أيضا نسيت عددا من الموائد كانت تمر بروادته كل مساء ... وفي خطي مدفوعة كانت تصرخ نحو حجرتها الخاضعة لتغير ثيابها التي تختلف باختلاف الأدوار ! وكان لا يزال هناك فسحة من الوقت فاستلقت على مقعد عائشة مخدرة .. حتى هذه اللحظة لم تكن تفهم حقيقة مشاعرها وإنما كانت تحس كأن هناك أشياء خفية مبهمه تتجاذب تلك المشاعر بل وتضيق بها خيوطا دقيقة . تشابكة وتثرها في الفضاء .. كانت تحس كأن فواها مسرقة وموزعة على تلك الخيوط الدقيقة المتشابكة ! ورويدا زويدا بدأت هذه الخيوط تتكاثف وتجتمع وتلتقي على حوافرها غلالا واضحة المعالم بإدرة المئات !

ما أكثر ما كانت تسمع من همسات النزل وكلمات الإطراء : وما أكثر ما كانت ترى في تبوؤ النظارة من الوجه النير والهبام

عن أمثالك عروسا !

كان قلبك الصغير يفتح أبوابه لهذا
الضيف الخالد الذي يحمل في يديه غذاء الأرواح
وبدأت أوقاتك تمتلئ بالرؤية السهبجة
والأحلام الخضراء ، وكانت أيامك تضي
وكأنها تفرح !

ومنذ ذلك الحين يار جاء بدأت تدركين
أن في الدنيا أشياء أخرى جميلة غير النور
وغير الفساتين و غير العقود ، بل أدركت
يار جاء أن هذه الفساتين الجميلة والعقود
اللامعة والمطور الفواحة ليست في ذاتها
الأمل المرجو والحلم الكبير ... إنما هي
درجات في السلم المرتفع الذي يعلو بنا
إلى السماء الجميلة هناك ، حيث الرجل المشود .
الرجل الذي يضاعف من أعجابه جمال الفستان
وغير المطر ويريق المقد !

وهنا تكثر خطوات أحلامك
في تنوء الحقيقة الصلد ... تلك الحقيقة التي
عرفتها بقطنة المرأة وعريزة الأنثى ، وانتهيت
منها إلى أن هذا الرجل المشود لن يدخل
حياتك إلا من هذا الباب السحور ... باب
الحلم والوهم والخيال ... لأن جميع الأبواب
الأخرى موصدة . يقف خلفها ذلك الرجل
الموهوب ، ذو النظرات القاسية والشارب
الغليظ والتقاطيع الصلدة . ذلك الرجل الذي
يملك من أمر هذا المرك كل شيء ، والذي

هذه الأردية التي تلف الطبيعة فيها عرائسها
الصغيرة حتى ترهبين إلى العن السعيد .
هناك حيث تمتد يد الرجل الموعود لتفك
عروتها واحدة بعد واحدة !

الصمت الخجول .. الشمس المرنيك ..
الحمرة الشفيفة .. البسمة العذراء .. كل
هذه الأردية يار جاء تمرقت عنك ...
مرقت عيون الرواد منذ كنت سبية في
الرابعة عشرة من عمرك !

لا ! لست عذراء لست امرأة ... من
أنت يار جاء ؟

وهنا فقط بدأت حياتها تدور على نفسها
إلى الوراء ، كانت تعرض أمام عينيها كل
ما أخفته في ظلالها الأيام ! كنت حبيبة
صغيرة ذات يوم ، وكنت وقتذاك لا تكفين
لحظة عن الضحك السعيد . كان يهيك
أن تنجح في أداء الأدوار برغم ما فيها
من قسوة لا تلائم عودك الفص وجسدك
الرييب ، مادمت ستسمعين أخيرا ذلك
التصفيق المتواصل الذي تتمثرين في أصدائه
وأنت تبحرين في مروح خارجة من الحلقة ،
وأیضا مادمت ستتألين نصيبك من تلك
الهدايا التي يؤثرك بها أبوك بين حين
وآخر ، وهي لا تخرج عادة عن النقود اللامعة
أو الفساتين الجديدة أو العقود الغالية ثم ،
ثم جاء اليوم الذي أصبحت فيه كما يقولون

الصورة .. ولكن هناك في قلوب الرواد
ثم اهبطى سيديك حول هذا المقوام المشوق
وتخيل كيف يمكن أن يبدو وهو يتأود في
خطوات مرتبكة داخل الطلوق الحديدي
الذي يبدو فوق سلك دقيق !

هذه السمور كلها يارجاء تجلب إلى أيك
مئات من الروادومئات ؛ ولكنها لانستطيع
أن تجلب إليك رجلا واحدا يمكنك أن تجلسي
معه إلى مائدة واحدة وبينكما طفل صغير ..
كهذا الطفل الذي قبل سورنك وهتف
بصوت صغير يرى :

— الله : الصورة دي زيك تمام ياماما !
آه يارجاء .. لقد لفحت هذه السمكات
مشاعرك كلها وهزيت كياناتك كله ونصرت
أصدائها الندية في أرض حياتك أوراق
حلم ذابل !

آه يارجاء ! لقد تميت وقتذاك لو كنت
مكان الصورة لتحسني وقع شفثيه النديتين
على حدك ، وتتركي وجهك لحظة لأنامله
الصغيرة تميت به كما تميت بالأنبياء !! ومع
هذا كله فإن أباك يعتقد أنه أراح ضميره أمام
الله حين عرض عليك أن تزوجي من أحد
أفراد السرك وبهذا لا يكون قد حال بينك
وبين حقاك الطبيعي في الحياة !

أزأت إلى منطق التجار يارجاء ؟ إن
حقك الطبيعي في نظره يتمثل في رجل ؟

يناديه كل أفراد السرك يامعلم ، وتناديه أنت
ييا أبي ! ترى هل تأملت يارجاء لأنك
تعرفين أن كل أب في حياة كل عذراء إنما
يبدل قصارى جهده في تستر ولباقة ليظفر
لابنته بالزوج النشود ... ولأنك تعرفين
أيضا أن هذا الرجل الموهوب إنما يبدل نفس
الجهد في تستر ولباقة ليحول بينك وبين هذا
الزوج النشود !

إن انتمالك إلى بيت الزوجية معناه في لغة
الواقع التي لا يجيد أبوك غيرها من اللغات ،
معناه شيء واحد : هو أن ينتقل جميع أفراد
السرك وعماله وعلى رأسهم أبوك نفسه إلى
الشارع ليؤدوا دورا جديدا على ناصيته ، هو
التسكع والبطالة !

أجل تلك هي الحقيقة التي لا تنفي
عنها أحلامك .. فمؤلا ، الرواد جميعا إنما
يحضرون هنا من أجلك ، من أجل عيبتك
يارجاء .. قومي وتأملي في المرأة عيبتك ،
تأملي هذا الإشراف الساحر الذي ينبعث
منها ليندكر الناس بأيامهم الجميلة - تأمليه
لحظة واحدة لأنه أبس بمقدورك أن تتأمليه
أكثر من ذلك ! ثم .. ثم طوئي بظفرانك
حول هذا الوجه الذي تعلى أهدابه في
عجراب العيون .. ثم تدكري أنه ليست
مرآتك وحدها هي التي تضم صورته ، وإنما
هناك مئات من المرايا الأخرى تعكس نفس

حياة الناس ؟

يا صبي يا رجاء ... إن لكل فرد من رواد السرك وزبائنه حياته الخاصة التي يعيشها بملء حريرته وبمضى في أرحاها على هواه ... حتى إذا أراد أن يظهر وأن يعبت وأن يمشي جزوا فارغا من حياته حله إلى هنا حيث تقدمين له حياتك كلها .

أرأيت إذن إلى حقيقة الصفة ، بل إلى حقيقة الهزلة ، مهلة حياتك يا فتاة ... أ هذي أنت يا رجاء قبل عرفت أخيرا من أنت ؟

وكلنا أشفقت عليها الأفدار من التماذي في تمكيرها هذا المر ... فاستوقفت خواطرها وتبين حاد متواصل تعودت رجاء أن اسمه كلما اقترب ميعاد دورها في اللامب !

ومضت لحظات قصيرة كانت بعدها قد لبست ما يلائم الدور الجديد من ملابس ، ولم تنس وهي خارجة أن تستعيد لشفيتها ابتسامة إنسان سميد ، ولحركاتها رشاقة ظلي ساح . ولم تكذب تظهر في الحلقة حتى دوت جوارب السرك بتصفيق حاد كان يتخلله حشد من الكلمات النزلة والتحصيا الشعبية !

وشيثا فشيثا بدأت الأصوات تمسكن والحركات تهدأ والأعناق تشرئب والنظرات

بمجرد رجل !! ولكن أتى لهذا الأب بارجاء أن يسير غور أحلامك ليعرف أنك لا تريدن بمجرد رجل ؛ وإنما تريدن حياة أخرى في مكان آخر . هذه الحياة الأخرى التي يحملها كل عذراء مهما كان نصيبها من الجمال ! هذه الحياة التي تعرف في عش صغير هاديء بمجناحي زوج وطفل ! هناك حيث تقضين وجه النهار السعيد .. تتسلين الأطباق أو ترتقين الجوارب ثم تهينين للزوج الغائب طعام الغداء ؛ حتى إذا عاد واحتواك بين ذراعيه في لحظة وشوق وقال بصوت تقطعه القبلات .. هل من الواجب يا عزيزتي أن أشكر لك .. كل ذلك ! فأقول له : هذا إذا كان من الواجب أن أشكر لك هذه القبلات ! ولكن ... ولكن حياتك أحلاما يا رجاء ! فهناك حقيقة أخرى هائلة لن تنفي عنها أحلامك ... !

حقيقة تلك الصفة التي عقدتها أبوك مع الجمهور يوم باعه حياتك كلها وأعطاك هذا الثمن المزيف ... الهتاف ... التصفيق ... الإعجاب ... الشهرة ... كل هذه الغفائيق كانت هي الثمن .. ثمن القلب الذي ضاع وضاعت أحلامه والعمر الذي أفر وإن سهرت حتى الصباح لباليه .. !

أتردين أن تصدق حقيقة هذه الصفة يا رجاء ، لتعلمي ماذا تقابل حياتك في

يلتفت

و ... و ... ولم تعد بعد ذلك تشعر بشي

يا صديق ... ترى هل أنت في حاجة
بعد إلى أن تسمع بقية القصة ؟ لا أعتقد
ولكن الوقت لتوقع بوجوب أن تسمع تلك
البقية من أفواه الجماهير التي خرجت
وقتها ولا حديث لها سوى تلك البقية !
كان البعض يردد في أسي وأسف

مكبنة ! يبدو أنها كانت مرهقة من طول
ما تؤدي من أدوار ، ويبدو أن هذا هو الذي
جعلها تفقد توازنها في الملاحظة الأخيرة !
وكان البعض الآخر يؤكد أنها قد
حصلت ، لها لا شك فيه أنها كانت مثار
إعجاب حطر ... !

وكان لا يزال هناك فريق آخر يبدو أنه كان
أكثر ذكاء ، من بقية الناس ؛ فقد كان هذا
الفريق يهز رأسه بغير اكتراث كما
يفعل الأذكاء ؛ وكان يقول بصوت خافت
مطموط : إنهم يفعلون ذلك عادة استجلابا
لعطف الجمهور !

محمد أبو المعاطي أبو النجا

مبر في صدق عما يضطرب في النفوس من
قلق ودهشة وإعجاب !

كانت رجاء إذ ذاك تؤدي حركاتها
البارعة وهي فوق سلم خشبي دقيق يرتكز
فوق قدمي رجل قد استلقى على ظهره ورفع
ساقيه في خطين متوازيين بعد أن نسي وركبه
فوق صدره !

وحين فرغت من أداء حركاتها المثيرة
كان عليها أن تقف لحظة كما تقضي قوانين
الملعب لتحيي الجمهور وهي هناك فوق السلم
الذي لا يعتمد على غير الله ... !

وبدون أن تشعر وجدت عينيها
تصفحان وجوه الجماهير بلمحة وشوق
وكأنها قارئ يقلب أوراق كتاب ليعثر على
صفحة خاصة ... وأخيرا وقعت عيناها على
تلك الصفحة الخامسة كانت تحمل صورة
لأسرة صغيرة قوامها زوج شاب وزوجة في
نهاية العقد الثاني وطفل صغير ... !

ولا تدري لماذا أحست كأنه لا يوجد
في السركس سواه .. ذلك الطفل الذي التفت
عيناها بعينيه في نظرة عميقة ! شعرت رجاء
بعدها بأن كيانه كله يهتز وجدها كله